تحليل الثنائيات الضدية فى شعر المقاومة اللبنانية

على طاهرى*

ناصر قره‌خانى**

الملخص

إن الأدب ظاهرة اجتماعية تتأثّر بالواقع وتعتنى بالفكر والرسالة وتلعب دورا هامّا فى توجيه الشعوب نحو قيم إنسانية سامية. ومن هذا المنطلق فإن شعر المقاومة اللبنانية كنوع من الأدب الملتزم، يسعى لتحقيق أهدافه من خلال التركيز على الظروف الصعبة التى يعيشها الناس من ناحية؛ ويحاول أن يقدم ما أقصى عنده وما يستطيع أن يقوم به لإذكاء الثقة بالنفس وتعضيد الذات من ناحية أخرى.فهو الأدب المعبّر عن العمل من أجل تفجير الطاقات الإيجابية الواجبة لمواجهة الظلم والعدوان والذى يحثّ على الأمل ويفتح آفاقا واسعة للصمود والاستمرار بالمقاومة.

فنجد شعراء المقاومة اللبنانية من جانب يصورون الدمار والاحتلال والألم والوجع تصويراً صادقاً، ومن جانب آخر يتحمسون لكرامتهم ويثيرون إقبال الناس إلى مقاومة الاحتلال ويستنهضونهم للدفاع عن القعيدة؛ فإذاً لايقل خطورة شعرهم عن سلاح المقاومين وهذه هى مهمة شاعر المقاومة الذى يرسم طريق الاستقامة للمستقبل و يحيى الأمل فى قلوب المضطهدين والمظلومين ويفعمها بالرجاء والنور.

هذه المقالة تلقى ضوءاً يسيراً على هذه المهمة الشعرية والوظيفة الاجتماعية عند شعراء المقاومة اللبنانية الذين فتحوا نوافذ للنور عن طريق عقد الثنائيات ومقابلة الضدين كالليل والنهار والآه والبركان والإذعان والملحمة والاحتلال والغضب والخيبة والأمل والموت والحياة الأبدية.

الكلمات‌الدليلية: شعر المقاومة، لبنان، الثنائيات، حزب‌الله.

١. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الاسلامية فى همدان.

٢. مدرس بجامعة ابن‌سينا.

Naser_gh@gmail.com

تاريخ الوصول: ١٣٨٩/٣/١٧هـ. ش تاريخ القبول: ١٣٨٩/١٠/١١هـ. ش

المقدمة

الجمهوريه اللبنانية هى إحدى الدول العربية الواقعة فى الشرق الأوسط ولها تاريخ عريق ووجود يناهض على ٧٠٠٠ سنة وتفاعل عميق مع الحضارات المختلفة طول القرون. ولموقعه الاستراتيجى كانت مطمحاً للاحتلال الأجنبى وساحة دامية للنزاعات والحروب ومنها الغارات التى شنّتها الكيان الصهيونى فى العقود الأخيرة على أراضيها الطيبة.

ولم يتنازل شعب لبنان المقاوم فى تاريخها الطويل لحظة عن الدفاع عن حقوقهم ووطنهم وهويتهم وبذلک أبدعوا ملاحم رائعة لاتزول عن ذاكرة الأجيال أبداً وخاصة ما شاهدها العالم فى حرب تموز ٢٠٠٦ م والتى كانت صفحة مشرقة على وجه التاريخ. وفيها لبت جماعة الأبطال داعى المروءة والأريحية والحق وحملوا على عواتقهم لواء الصمود والمقاومة وهاهم حزب الله الذى حقق جنوده البواسل أمنيات شعبه الأحرار فى تنظيم سياسى عسكرى شيعى متواجد على ساحة لبنان السياسية والعسكرية على مدى أكثر من عشرين سنة. حيث أثبت وجوده أكثر مما كان بعد أن أجبر الجيش الإسرائيلى على الانسحاب من الجنوب اللبنانى عام ٢٠٠٠م واستطاع أن يلحق الهزيمة بالجيش الإسرائيلى عام ٢٠٠٦م.

واكب الجنود المقاومين فى هذه الحركة الجهادية عدد غير قليل من الشعراء الأبطال الذين استمدّوا من أشعارهم الحماسية فى استنهاض الناس وإثارتهم للدفاع عن العقيدة والحرية لاعبين دورهم المصيرى فى مجاراة الأحداث وتصويرها تصويراً فنياً بارعا فى نهاية الدقة والحركة. فمن جانب صوروا أحداث هذه الفترة من الدمار والاحتلال والألم والوجع تصويراً صادقاً يعرضون من خلالها المشاهد المؤلمة والمناظر المثيرة للحزن ويعبرون عن المأساة التى يعيشها سكان بلادهم المظلومون. ومن جانب آخر تحمسوا للعقيدة والشعب والوطن وأثاروا إقبال الجماهير إلى مقاومة الاحتلال واستنهضوهم للدفاع عن القعيدة والشرف فجعلوا من أشعارهم عاصفة هوجاء تستأصل الغاصبين أو بركاناً هائجا يطيح بالكيان الصهيونى، كما يقول خليل عجمى من شعراء المقاومة اللبنانية:

تفجــر الشــعر بركانــا بقافيتــى حيث الجنوب بنار الشــعر منظوم

(خليل عجمى، ٢٠٠١م: ١٤٠)

وحين ينشد شاعر المقاومة اللبنانية أنشودته الحماسية نشعر وكانّه يحمل البندقية ويطلق الرصاص ويشعل النار ويرمى الحجر وحينما يصور منظر استشهاد أحد المجاهدين كأنّه هو يستشهد معه فإذاً لايقل شعره خطورة عن سلاح المقاومين وهذه هى مهمة شاعر المقاومة الذى يرسم طريق الاستقامة للمستقبل ويحيى فى قلوب مواطنيه الأبطال الأمل ويفعمها بالرجاء والنور ويجعل من الشهداء عنوان الشموخ والإباء وبهذا يكون الشعر عامل الحياة قبل أن يكون عامل اليأس. فلا يئن ولايتأوّه أو يضجر بل يصرخ ويزمجر ويرعد ويظل مقاوما مستعصيا بنبرته الثورية التى يدخل الرعب فى قلوب المعتدين ويعيد الأمل إلى عيون المضطهدين ويسكن آلامهم ويضمد جروحهم ويهيئهم لاستقبال شمس الانتصار ومشاهدة ابتسام صبح الظفر.

تحليل الثنائيات فى شعر المقاومة اللبنانية

الأدب المقاوم يعمل فى اتجاهين:

الأول اتجاه فى تصوير أفظع الويلات وأدمى الذكريات من قصف وتدمير وقتل واحتلال لها الأثر الكبير فى نفوس المشاهدين، حيث يشعر القارئ وكأنّه يعيش الأحداثَ ويشارك فيها مشاركة فعالة.

والثانى اتجاه فى تأصيل القيم الدينية والإنسانية وتعضيد الذات الجمعية الذى يؤهل الأفراد والجماعات لمواجهة الأعداء ويزودهم بمعنويات عالية فى لحظات الخطر ويبشر بالصبح وهو فى دياجير الظلام وبالربيع وهو فى موسم الخريف.

ومن أهم الخصائص لشعر المقاومة الارتكاز على المؤثرات الإيجابية والانتقال من طقس التشاؤم فى الأحداث إلى جو التفاؤل بتكوين الثنائيات وتركيبها الأكثر جاذبية وشاعرية التى بها ينتقل القارئ من اليأس إلى الأمل وينتهى القضية بتفاؤل مأمول عند الشاعر بينما هو يعيش فى عمق المأساة ويعانى شعبه معاناة لاتوصف.

فى إلقاء ضوء يسير على هذه المهمة الشعرية والوظيفة الاجتماعية عند شعراء

المقاومة اللبنانية فلابد لنا من دراسة بعض الثنائيات التى تتجلّى فى دواوين شعراءنا الكبار فنقتصر منها على ما يلى.

الجرح ← آى البلاغ:

نجد فى جانب من هذه الثنائيات الجرح والليل والدجى والدمع والآه والإذعان والسبى ونزع السلاح والدم والاحتلال وفى جانب آخر وفى مقابل هذه المفاهيم المأساويه وعناصر التشاؤم نجد عناصر فعالة نابضة بالحياة كآى البلاغ وبزوغ الفجر وابتسام الصبح وإنارة الطريق وتفجر بركان الغضب والملحمة والانتصار وتحرر الأوطان والتسلح بالإيمان والعزة والإباء وبعث الأمل وإطفاء نار العدو.

فالشاعر المقاومُ يجعلُ الجرح الدامى فى شعره آى البلاغ الذى ينشر رائحة الأوراق:

وقفــى على نطــق الجــراح فإنّها آى البــلاغ تشــيح بــالأوراق

(حماده، ١٤٢٤م: ٤٠)

ويتولد النصر من مواسم الجرح:

هذى مواسم جرحنا/ قد ازهرت وتلألأت/ والنصر منها يولد

(حسن نصرالله، ٢٠٠٧م: ٦٨)

ويتمثل فى ديوان شعر المقاومة مشعلاً يضىء الطريق للمدلجين:

وبــأن جرحــک مشــعل بكــر التوهّــج والتضنّــى

(عباس موسى، ٢٠٠٣م: ١٨٥)

والذى كان مشعلاً مضيئاً وقبساً من أنوار الهداية فى طريق المقاومة الإسلامية وأصبح عنوان الشموخ والإباء.

الليل ← بزوغ فجر النصر والحرية:

إن من الخصائص البارزة لأدب المقاومة أنه أدب التعبير عن الواقع المؤلم والإشارة إلى مستقبل مأمول فى أسلوب فنّى بارع لأداء مهمة الأدب من تصوير واقعى للظروف

الاجتماعية والسياسية المؤلمة التى تكرهها النفس والتشوق إلى مايرسم معالم طريق المقاومة بنظرة إيجابية حية. فحين يذكر شاعر المقاومة الليل أو الدجى يرنو إلى فجر مؤمل يشق جيب الظلام ويبشر بقدوم صبح الانتصار ويدعو المجاهدين وأبطال المعارك ليقلبوا الليل نهاراً بمثابرتهم ومقاومتهم:

شـقِّ الظـلام ومـزّق الأسـوارا وارفـع جبينـاً بالعـلاء تبـارى
فرؤاک فى هـذى الربى إرهاصة لغـد الشـروق لتنتشـى إسـفاراً

(العاملى، ۲۰۰۷م: ۵۵)

ويحلم بالنور وهو يسكن فى حنايا ظلمة الليل:

صبـراً فـإن ليالى النـور قادمة والحق ينقل من سـرٍ إلى علنِ

(النابلسى، ۲۰۰۱م: ۶۳)

وله رجاء واثق بانتصار النهار على الليل والنور على الظلمة لأن شعبه الباسل وجيله المؤمل هم النور والنهار:

يـا أيهـا الجيـل المؤمـل قدسـنا ليسـت إعـاره
أنتـم مصابيـح الهـدى أطفأتـم للخصـم نـاره
إن طـال ليـل أو تمـادى عتمـه كنتـم نهـاره

(النابلسى، ۲۰۰۱م: ۱۳)

فكما نلاحظ، بينما يعيش الشاعر فى رهبة بين الظلام واللانور وحيرة بين الفزع واللاهدوء يريد لشعبه أن يعيش أملاً بين النور واللاظلام والهدوء واللافزع.

الآه والنوح ← بركان هائج يقضى على حياة الظالمين والغاصبين:

... يتبدل الآه فى ديوان المقاومة بركاناً هائجاً يحرق أسطورة الظلم وزمرته:

إذ يحـرق الآه نيرونا وزمرته إذن تفجـر عبـر الآه بـركان

(فضل الله، ۲۰۰۴م: ۱۹۵)

ولاينصر النوح الحق، فعلى الشعب أن يترک العويل والنواح لأنه لايسبب رقة قلوب الظالمين:

لاينصر النوح حقاً أنت تنشده ولايرق لدمـع العيـن ثعبان

(فضل الله، ۲۰۰۴م: ۱۹۸)

وتنادی کل طفلة مقهورة بشهقتها الغاصبين وتنذرهم بأن الأعداء لايجدون فی الوطن المحتل مکاناً للراحة:

وبکل شهقة طفلة صوت فصيح لن تستريح بأرضنا لن تستريح

(فضل الله، ۲۰۰۴م: ۱۵۳)

وبذلک يکون حثاً علی الصبر فی سبيل الحرية والعزة أکثر من أن يکون عامل ضعف واستسلام، يقول محمود درويش:

وقريبا يصبح الدمع سنابل/ آه يا أطفال بابل ...

(درويش، ۱۹۸۹م: ۳۳۹)

الإذعان والسبی ← الملحمة والإباء:

يدعو شاعر المقاومة وينادی شعبه المضطهد ليبّدلوا الإذعان ملحمة والتسليم إباء:

يا أمتی، حوّلی الإذعان ملحمة مِلّی الرکود ولاتُعطی لأعدانا

(العاملی، ۲۰۰۷م: ۵۴)

والمجاهد البطل رغم تألمه والتوقيف عليه يشعر بأنه شجاع فارس:

زردٌ علی جسدی ورشاش علی رأسـی ووجهی للجدار مُدار

لکننی أحسسـتُ رغم تألمی أنّـی شـجاع فـارس مغوار

(عجمی خليل، ۲۰۰۱م: ۱۰)

والمقاومة الإسلامية ـ التی عبر عنها الشاعر بليلی ـ سوف تنتصر بالصبر والإيمان:

بکر الحرائر ليلانا وإن سـبيت لسـوف بالصبر والإيمان تنتصر

(فضل الله، ۲۰۰۴م: ۱۹۲)

ولايهم المجاهدين أنهم من دون أسلحة، لأنهم مسلحون بالإيمان ولايخيب من تسلح بالإيمان:

ماهمّنـا أننـا مـن دون أسـلحة فمـن تسـلّح بالإيمـان لـم يخـبِ
فـلا البنـادق أقـوى من سـواعدنا حتى الصواريخ لاتقضى على الشهب

(عجمى خليل، ٢٠٠١م: ١٠)

الدم ← مهر المواطن وسبب تحرر الأوطان:

الدم الذى يجرى فى معركة القتال وينسكب من عروق المجاهدين الأبطال هو الذى يحرر الأوطان كما يقول خليل عجمى:

بـدم الشـهيد تحـرّر الأوطان وبجيشـها شـرف البلاد يصان

(عجمى خليل، ٢٠٠١م: ٨٢)

ما حرّرت أرضـاً على أبناءها إلاّ دم الأحـرار والشـهداء

(النابلسى، ٢٠٠١م: ٣٩)

وهو الذى يهدم أسطورة الجيش الإسرائيلى الذى لايغلب، وهذا ما شاهده العالم فى العقد الأخير على أيدى أبطال حزب الله بتضحية الشهداء:

بدمائنـا وجهادنـا قـد هُدِّمـت أسـطورة الجيش الـذى لا يغلبُ
فلتأخـذ الأيـام درسـاً والأمـم أن الموطـن مهرهـا روح ودم

(حسن نصرالله، ٢٠٠٧م: ٣٣)

وبواسطة هذه الدماء الزكية تتفتح براعم الانتصار وتزهر ناشرة رائحة الإيمان عبر التاريخ:

سـقيتم أرضنـا الحـرّى دماءً سُـيزهر عطرُهـا نصـر البقاء

(العاملى، ٢٠٠٧م: ٢٤)

وفى موضع آخر يخاطب شاعر المقاومة حسن بدران، شهيد المقاومة الإسلامية الذى ضحّى بدمه الغالى فى سبيل حرية القدس ويعتبر دمه القيم من أواصر الحياة:

حسـن بدرانُ يا شـمس الحياة شـهادتک التحـدى للطغـاة
فديـتَ القـدس تعطيهـا دمـاءً وأنـتَ دمـاکَ أوتـار الحيـاة

(العاملى، ٢٠٠٧م: ٤٠ و٣٩)

ویضحّی شهید المقاومة دمه سراجاً یضیئ طریق المُدلجین إذا افتقدت الشمس والبدر:

وهبت دمی للمدلجین مسارجاً　　إذا تاه فی مسراهما الشمس والبدرُ

(فضل الله، ۲۰۰۴م: ۲۵۴)

وقد یعتبر هذا الدم النازف منبعا للقوة والصمود والتحدّی، کما تقول زینب شریم خمیس فی قصیدة «أطفال الحجارة»:

وأنت سیلٌ دم الأحرار منبعه　　لازلت ترفلُ بالآمال منطلقاً

(شریم خمیس، ۲۰۰۶م: ۵۸)

الاحتلال ← الغضب والإباء:

یبدی الشاعر تعالقاً علی وجه الحقیقة بین الاحتلال والغضب أو بینه وبین العزة والإباء فلذلک لایستکین شعب لبنان المقاوم لمتحل أو مغتصب:

لبنان شعبک فی أرض الجنوب أبی　　إن یستکین لمحتل إذا غضبا

هی البطولة یا لبنان شیمتنا　　ونحن نصنع منها عزة و إبا

(عجمی خلیل، ۲۰۰۱م: ۴۹)

وهذا ما نشاهده غیر مرة فی أوراق شعر المقاومة:

دوّن علی صفحة التاریخ یا وطنی　　آیات عزّک واختر للعلی رتبا

(عجمی خلیل، ۲۰۰۱م: ۵۲)

الموت ← الحیاة الخالدة:

ثنائیة الموت والحیاة الضدیة أکثر الثنائیات عرضاً فی شعر المقاومة لأنها تحمل صورتین متعارضتین، تنبثق الاولی من واقع الماساة التی تحیط بالوطن المحتلّ من القتل والتدمیر والثانیة من الاحساس الدافیء الذی یبعث فی القارئ الأمل ویتعدی الأفق المأساوی الواقعی إلی آفاق جدیدة بما تحمله من بُشری ورجاء واثق بالمستقبل وارتیاح بنظرة تفاؤلیة بینة، ألا وهی الحیاة بکل عناصرها النابضة الوضّاءة. وهنا یشعر القارئ بانتقال من حال إلی حال ثانیة یتراءی فیها الجمال والأمل والأفراح بین دوالیب

الفزع والخوف والاكتئاب، ويسمى شاعر المقاومة الموت فى سبيل نيل الحرية مهر الحرية حين يقدم قصيدته «لأرواح شهداء حزب الله» ويؤكد على أن الذى يموت هكذا يعيش خالداً بين شعبه:

بُنَى حينَ تحضر فى خاطرى
ورسمک فى لوحة الذكريات
فأنت الذى عاش ما بيننا
و ما مات إذما طواه الممات
وعشقک يكبر رغم السنين (حسن نصرالله، ۲۰۰۷م: ۳۰)

كما يشير النابلسى إلى نفس المعنى ويقول:

مامات من لبّــى النداء لواجب ما عاش من أمسى مع الأرشاء
(النابلسى، ۲۰۰۱م: ۳۹)

والعاملى حين يقدم قصيدته الرائعة «لحسن بدران»[1]، يؤكد على نفس الأمر:

شــهيد الحق يا بــدران تبقى فعزمک ليس يمحــى بالوفاة
(العاملى، ۲۰۰۷م: ۴۱)

لأن الموت فى سبيل الله يفتح آفاقاً جديدة لاتسعها الحياة الفانية كما تقول الشاعرة زينب شريم خميس بمناسبة استشهاد محمد الدّره:

يا قرة العين لو تدرى لكم فَتحت منک الشــهادة مــن أبعادها أفقا
(شريم خميس، ۲۰۰۶م: ۶۱)

والموت والميلاد فى وطنى المؤله توأمان
(درويش،۱۹۸۹م: ۲۲۲)

وعلى هذا الأساس وفى نهاية المطاف يصبح الموت فى سبيل الله أو الاستشهاد رمز الظفر والانتصار كما يكتب طفل فى رسالته إلى والده الشهيد:

أبتــاه فاهنا بالرحيــل مظفراً وانعــم بذكــر عاطــر مضواع
(شريم خميس، ۲۰۰۶م: ۷۵)

۱. الشهيد المجاهد الذى استهشد عام ۱۹۸۷م.

فلنهنّئ أرض العاملة بهؤلاء الأبطال الذين يضحون أنفسهم لتنتصر بلادهم على الأعداء وتظفر بالاستقلال:

فلتهنئــی عامــلاً للمجد أغنية　　هنا الشــهادة زرع أنبت الظفرا

(العاملی، ۲۰۰۷م: ۱۰)

النتيجة

يكون شعر المقاومة عامل حياة قبل أن يكون عامل يأس وينطق بجلال الحياة قبل أن ينطق بعظمة الموت ويضفی رونقاً خاصاً ومشاركة فعالة فی تهييج الجماهير نحو ميادين القتال ويفتح آفاقا واسعة من الأمل دون أن ينزل ساعة عن صهوة جواده أو يتنازل لحظة عن السمو إلى مستوى هدفه المثالی فيوجّج الشوق إلى مواكبة الكواكب استعدادا لاستقبال شمس الظفر والانتصار معلنا بتباشير الربيع ومرحّباً بقدوم الصباح، بما تحمله من بشری وأمل فی نظرة تفاؤلية تؤول فيها المأساة إلى البشری والظلام إلى النور دفعاً لكل أنواع التشاؤم وهذا ما نجده بينا فی دواوين شعر المقاومة ونذكر منه على سبيل المثال:

يــا أيهــا الشــعب الــذی　　أضفــی على الدنيــا فخاره

أحيتيــم الأمــل الــذی　　دفنــوه فــی قعــر المغــاره

(النابلسی، ۲۰۰۱م: ۱۱)

وفی موضع آخر يخاطب الشاعر شعبه البطل ويشجعهم للمصود مبشّرا بقدوم النور:

صبــراً فإن ليالی النور قادمة　　والحق ينقل من سرّ إلى علن

(النابلسی، ۲۰۰۱م: ۶۳)

لأنّ منه يبعث الأمل وفيه يتراءی جمال الانتصار:

تغايرت ضرباتٌ منه صاعقة　　هی المنون ومنها يبعث الأمل

(فضل الله، ۲۰۰۴م: ۲۵۹)

فرؤاک فی هذی الرُبی إرهاصة　　لغد الشروق لتنتشــی إسفارا

(العاملی، أهازيج الدماء، ۲۰۰۷م: ۵۵)

او مـادرى اهـل اليهـود بأنّنـا سـنقضُّ مضجعهـم لنأخـذ ثاراً
لنعيـد خيبـرَ بلَسـماً لجروحنا لنُعيـد أمجـاداً خلـت تتـوارى
سـينطل حزب الله صوتا صارخا يشفى الغليل ويسـحق الأشرارا
لِتُرفـرف الراياتُ فـوق ربوعنا شـمّاء تهتـفُ تحتفـى الأحرارا

(العاملى، ۲۰۰۷م: ۵۸)

وهذه هى مهمة شعر المقاومة اللبنانية التى تركت بصماتها وآثارها الإيجابية على ساحة الأدب اللبنانى وعلى شعب لبنان المقاوم ورسمت للمستقبل طريق الخلاص والاستقامة.

المصادر والمراجع

حسن نصرالله، جواد. ۲۰۰۷م. *حروف مقاومة. الطبعة الثانية*. بيروت: دار الهادى.
حمادة، إيهاب. ۲۰۰۳م. *الرسم على الماء*. الطبعة الأولى. بير.ت: دار الولاء للطباعة والنشر.
خميس، زينب شريم. ۲۰۰۶م. *عشرة الفجر*. الطبعة الأولى. بيروت: دار الولاء، للطباعة والنشر.
العاملى، محمد قدسى. ۲۰۰۷م. *أهازيج الدماء*. بيروت: دار الولاء، للطباعة والنشر.
العاملى، محمد قدسى. ۲۰۰۷م. *مشكاة الأنوار*. بيروت: دار الولاء، للطباعة والنشر.
عجمى، خليل. ۲۰۰۱م. *قصائد الانتصار*. بيروت: دار المحجة البيضاء.
فضل الله، عبدالمهدى. ۲۰۰۴م. *القنديل والغربة*. الطبعة الأولى. بيروت: مركز الإمام الخمينى الثقافى.
موسى عاطف، عباس. ۲۰۰۳م. *صرخة نصر*. بيروت: لانا.
النابلسى عفيف. ۲۰۰۱م. *نحفات عاملية (قصائد للمقاومة والشهادة)*. بيروت: دار الهادى.